مفهوم الجهاد في فتح المرابطين لغانا سنة 469 هجري

عبدالله عبد العزيز عبدالله التقاز*
كلية التربية أبي عيسى ، جامعة الزاوية
a.eltagaz@zu.edu.ly
تاريخ الارسال 2025/10/10م تاريخ القبول 2025/11/11م
https://doi.org/10.66045/Oo111sxi

The Concept of Jihad in the Almoravid Conquest of Ghana in 469 AH

Apdallh apdalhziz Apdallh altjaz

Abstract
The Almoravid jihad in Ghana marked the beginning of their state's establishment. They started from a ribat (religious fortress) near the Senegal River in the Sahara Desert during the 5th century AH, under the leadership of Abdullah ibn Yasin, aiming to spread Islam and purify Muslims' beliefs in the region. Their jihad succeeded in the far Maghreb against Sijilmasa, Barghawata, and Aoudaghost, and extended southward into the desert toward Ghana and Koumbi Saleh (the capital of Ghana, in 469 AH), leading to the fall of Ghana into Almoravid hands and the establishment of Islamic rule there.
Ghana already had a considerable Muslim population, but traditional African beliefs were still present. The Almoravids aimed to spread Islam and unify its teachings in the region. Ghana was also very rich in gold, which the Almoravids saw as both a motivation for jihad and a means to benefit from its wealth and improve the economic and social conditions of Muslims. They waged jihad against the pagan Ghana Empire according to Islamic principles, which called for one of three options: conversion to Islam, payment of jizya (tax), or war—thus legitimizing their jihad in Ghana.
Keywords
Almoravid State – Almoravid Conquest – Abdullah ibn Yasin – Abu Bakr ibn Umar al-Lamtuni – Islamic Ghana

الملخص:

كان جهاد المرابطين في غانا بداية لتأسيس دولتهم، حيث انطلقوا من رباط قرب نهر السنغال في الصحراء الكبرى في القرن الخامس الهجري بقيادة عبد الله بن ياسين

حقوق النشر © للمؤلف/للمؤلفين 2025. ينشر هذا البحث بموجب رخصة المشاع الإبداعي Creative Commons (CC BY-NC 4.0)

لنشر الإسلام وتنقيح عقائد المسلمين هناك، فنجحوا في جهادهم هذا ببلاد المغرب الأقصى ضد سجلماسة وبرغواطة، وأودغست، وفي الصحراء باتجاه غانة وكومبي صالح (عاصمة غانا، عام 469هـ)، مما أدى إلى سقوط غانا في يد المرابطين، وإقامة حكم إسلامي فيها

كانت غانا تحتوي على جزء كبير من المسلمين، لكن المعتقدات التقليدية الأفريقية كانت لا تزال قائمة، فهدف المرابطون إلى نشر الإسلام وتوحيد تعاليمه في المنطقة، كما أن غانا غنية جدًا بالذهب، واعتبر المرابطون ذلك حافزًا لهم للجهاد والاستفادة من ثرواتها، وتحسين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للمسلمين، فساروا في جهادهم ضد إمبراطورية غانة الوثنية حسَب السُّنَّة؛ التي تقتضي الإسلام او الجزية او الحرب، التي تعني شرعية الجهاد في غانة.

الكلمات المفتاحية: دولة المرابطين - الفتح المرابطي - عبدالله بن ياسين - ابوبكر بن عمر اللمتوني - غانة الإسلامية

المقدمة.

دعا المسلمون منذ بدايات تأسيس الدولة الإسلامية للجهاد في كل أطراف المعمورة بشتى الطرق والوسائل المتاحة، ولم يدخروا جهدًا في سبيل تحقيق هذا الهدف النبيل، حيث تمكن المسلمون من عبور البحار وتجاوز الصحاري في سبيل نشر الإسلام، ومارس كل مسلم ضمن مجال عمله هذا العمل الجهادي، لاسيما العلماء الذين كان لهم دور بارز في نشر هذه الفكر ة الجهادية .

وبالتالي ظهرت العديد من الدول الإسلامية التي ساهمت بذلك، ولعل أهم هذه الدول دولة المرابطين التي كان لها دور بارز في تبني فكرة الجهاد في غرب أفريقيا ووسطها متحدّين كل الصعوبات التي واجهتهم؛ لأنهم كانوا يدركون أن القبائل التي تعيش في تلك المناطق هي قبائل بسيطة ومضطهدة، حيث يسيطر الجهل عليها، فوضعوا نُصب أعينهم هذا الهدف حتى ولو كلفهم الغالي والنفيس، وقد كان في هذه الدولة الكثير من رجال العلم والفقهاء الذين أدركوا أن الجهاد في سبيل الله، مهمة لا يُضاهي أهميتها أي مهمة أخرى، كونها كفيلة بإخراج الناس من ظلمات الشرك والضلال إلى نور الهداية والتوحيد.

كانت بلاد غانا من البلدان الغنية بالثروات وقد كانت هدفًا للمطامع الاستعمارية منذ قديم الزمان لهذا السبب، كما أن القبائل التي تعيش في هذه المنطقة هي قبائل بسيطة لا تعرف أي معنى للتصنع، كما أن هذه المنطقة ذات أهمية استراتيجية كبيرة

كونها صلة الوصل بين الجنوب والوسط الأفريقي باتجاه قارة أوروبا فكانت كل القوافل التجارية تمر فيها وهذا البعد الاقتصادي كان مهمًا ودافعًا لاستعمارها.

هذا وقد كان هناك العديد من العادات والتقاليد المتبعة في تلك المنطقة، والتي كانت تتنافى مع مبادئ الإسلام، وكانت هذه العادات تعكس مدى الجهل الذي كانت تعيشه قبائل غانا في تلك الفترة الزمنية، ومن بين هذه العادات الرذيلة الزواج بأكثر من أربع نساء، وكان الزنا منتشرًا بشكل كبير، ولم يكن هناك أي وجود للعقيدة الإسلامية الصحيحة، حيث كانت تصرفات قبائل غانا خارجة عن التعاليم الصحيحة للدين الإسلامي، الامر الذي دعى المرابطون إلى رفع شعار الجهاد.

يهدف البحث إلى التعريف بمفهوم الجهاد المرابطي، وبيان دوره في فتح غانا سنة 469هـ، وإيضاح الأسباب التي أدت إلى ظهوره، فالتاريخ الإسلامي يزخر بالمفاهيم المؤثرة على الصعيد المحلي أو الإقليمي أو الدولي وتُعد هذه من سنة الله في الخلق أجمعين، فليس محصوراً مثل هذه المفاهيم على الأمة الإسلامية فقط ,بل نجد أن غالبية المجتمعات على مر الأزمنة ظهرت فيها مفاهيم مختلفة، إلا أن الاختلاف يكون في درجة تأثير المفهوم على القبائل والمجتمعات من حراك إلى أخر.

ولا غرابة في ذلك لعدة أسباب منها حجم التحدي والإيمان الصادق بأهداف ومهام المفهوم، لدى المؤثرين فيه والمتمسكين بتنفيذه ,وكذلك ما تم من إنجازات على أرض الواقع

تعتبر دولة المرابطين من أقوى دول المغرب الإسلامي أنذاك، وقد انضوت تحت لوائها أكثر من سبعين قبيلة والتي تكونت منها دولة المرابطين، ويتضح من الناظر في سيرة المرابطين أنهم اختاروا حياة الصحاري وخشونتها حتى بعد أن تمكنوا في الأرض، وأصبحت لهم دولة في قارتين من قارات العالم) أفريقيا وأوروبا.(

تكمن أهمية البحث في التعريف بمفهوم الجهاد عند المرابطين واثره على نشر الإسلام في غانا، وأسباب ظهوره على الساحة الدولية وتأثيره في المجتمع الغاني.

أما اشكالية البحث فهي معرفة ما مفهوم الجهاد عند المرابطين وما دوره في نشر الإسلام في غانا؟ والأسباب التي أدت إلى ظهور المرابطين كقوة كبرى لها وزنها السياسي والعسكري في تلك البلاد أنذاك.

أما تساؤلات البحث :ما ه مفهوم الجهاد المرابطي في غانا ؟ من هم المرابطين ؟ ما دور الجهاد المرابطي في نشر الإسلام في غانا ؟ ما الأسباب التي أدت إلى ظهور المرابطين كقوة جهادية؟ ما صدى ذلك الفتح المرابطي لغانا عند ابن خلدون ؟

اعتمدنا في معالجتنا للإشكالية المطروحة لبحثنا هذا، على المنهج الوصفي والتحليلي الذي يفرض نفسه في مثل هذه الدراسات، والذي يفسر الاحداث ويناقشها وفق رؤية علمية موضوعية، وذلك من خلال استنباط معلوماتنا البحثية من خلال النصوص والآراء، وفق المعطيات المتوفرة في متون المصادر التاريخية ن ولكيلا اطيل انتقل الى أولى جزئيات بحثنا، وهي:

اولًا ـ ظهور دولة المرابطين:

ظهرت دولة المرابطين .[1] في القرن 5 هـ /11م، بقيادة عبد الله بن ياسين.[2] وهو فقيه مغربي، من علماء المذهب المالكي و مجاهد من قادة الجهاد الإسلامي، وقد اتجه الشيخ عبد الله بن ياسين صوب الصحراء الكبرى، وبعد فشله في دعوة قبيلة جدالة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، طرد منها واتجه نحو الصحراء الجنوبية في أعماق القارة الإفريقية، وحط الرحال في شمال السنغال على مصب نهر من الأنهار، وهنالك بدأ تأسيس الدولة المرابطية، وبداخل خيمته شرع الشيخ عبد الله بن ياسين يعلم أتباعه الإسلام، ومبادئ الدين، والكتابة والقراءة، فداع صيته بين الناس، وكثر الوارد عليه هو وأصحابه، فتزايد عددهم، فسماهم الشيخ عبد الله بن ياسين المرابطين لأنهم لازموا رابطته...وكانت تلك مرحلة مهمة في تاريخ الغرب الإسلامي.

كانت جنوب موريتانيا صحراء قاحلة يعيش فيها طوائف وقبائل تسمى قبائل صنهاجة، وأكبر فرعين فيها جدالة ولمتونة، فالقبيلة التي كانت تسكن في منطقة جنوب موريتانيا هي جدالة، وكان على رأس هذه القبيلة رجل اسمه يحيى بن إبراهيم الجدالي، ذهب بالفعل إلى الحج، ثم عاد إلى القيروان، وهناك قابل أبا عمران الفاسي شيخ المالكية في مدينة القيروان، فحكى له المنكرات التي تحدث في قومه، فأرسل معه رجلاً يعلم الناس دينهم، وهو الشيخ عبد الله بن ياسين، فذهب معه حتى وصلا إلى جنوب موريتانيا، ونظر في الناس فرأى هذه المنكرات تفعل أمام كل الناس، فبدأ في أناة شديدة يعلم الناس، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فبدأ الناس يجادلونه ويصدونه عما يأمر به، ولم يستطع يحيى بن إبراهيم الجدالي زعيم القبيلة أن يحميه؛ فخرج الشيخ عبد الله بن ياسين من البلد فتعمق أكثر في الصحراء، في جنوب موريتانيا، حتى وصل إلى شمال السنغال، وهي بلاد إسلامية كبيرة جدا [3] نزل في شمال السنغال على مصب نهر من الأنهار، في غابة من غابات إفريقيا هناك فوضع خيمته على مصب النهر، وبعث برسالة إلى أهل جدالة في جنوب موريتانيا أن من أراد أن يتعلم العلم فليأتني في هذا المكان، وكان في جدالة مجموعة من الشباب

تتحرق قلوبها للدين، فلما علموا أن الشيخ في شمال السنغال، تاقت قلوبهم إلى لقياه، فاتجهوا اليه، وجلسوا مع الشيخ عبد الله بن ياسين في خيمته، وكانوا اثنين أو ثلاثة أو أربعة فأخذ يعلمهم أن الإسلام دين شامل ومتكامل ينظم كل أمور الحياة، فبدأ يعلمهم العقيدة الصحيحة، وكيفية العبادة والجهاد في سبيل الله، فذاق هؤلاء الشباب حلاوة الدين، فذهبوا إلى جدالة، فعاد كل واحد منهم برجل، فبدلاً من خمسة أصبحوا عشرة (4).

وقد حاربت جيوش ابن ياسين قبائل جدالة المتمردة تحت قيادة احد تلاميذه المخلصين يحيى ابن عمر اللمتوني، وكانت المعركة حامية الوطيس استمات فيها المرابطون حتى انتزعوا النصر من أيدي أعدائهم هذا الانتصار المدهش الذي حققه المرابطون في فترة قصيرة من الزمن، ومما يؤيد هذا إن قبائل لمتونة اذعنت للطاعة منذ البداية ولم تبد اية مقاومة وربما كان لتعيين قائد الجيش منهم اثره ثم استسلم باقي القبائل الأخرى، فتوحد الصحراويون بعد أن فرقت بينهم الحروب والنزعات واسلموا اسلاما جديدا، واجتازوا لذلك امتحانا عسيرا واختبارا دقيقا كان يشرف عليه القائد بنفسه.(5)

وكان من أولى أهداف ابن ياسين فتح باب الجهاد الإسلامي في ممالك السودان فحارب دولة غانة الوثنية واسترد منها مدينة اودغشت، التي انتزعها الزنوج من أطراف الصحراء وأرجعها لي حظيرة الملثمين، وأوغل في ممالك الزنوج وسجل انتصارات باهرة اضطر معها صاحب التكرور إلى عقد حلف مع المرابطين والوقوف إلى جانبهم، وهكذا دخل الإسلام الى بلاد السودان الغربي لأول مرة وكان ذلك من اغلي أماني لابن ياسين ومطامحه الواسعة.(6)

وخرج عن جزولة إلى ملتونة، فقام بأمرهم، قبل أيام تاشفين بن عمر، وقبل أيام يحيى بن عمر، وهو الذي سماه بأمير المسلمين، وأول من تسمى منهم بذلك .فقام بأمره وجاهد معهم وقلدوه أمرهم .وأنفذ حدوده في أميرهم، فمن دونه، ثم توفي يحيى، فسلك تلك السبيل مع أخيه أبي بكر بن عمر، ولقد ذكر أنه ضرب بالسوط أبا بكر بن عمر وهو إذ ذاك أمير المسلمين، والكل له مطيع، ويحفظون من فتاويه وأجوبته، ما لا يعدلون عنه، وكان أخذ جميعهم بصلاة الجماعة، وعاقب من تخلف عنها عشرة أسواط، لكل ركعة، تفوته، إذ كانوا عنده ممن لا تصح له صلاة إلا مأموما، لجهلهم بالقراءة والصلاة، واستقامت للمرابطين بلاد الصحراء بجملتها وما وراءها من بلاد المصامدة، والقبلة، والسوس، بعد حروب كثيرة، ثم خرج بالناس لجهاد برغواطة الكفرة، فغزاهم مع أبي بكر بن عمر، في جمع عظيم من المرابطين.(7)

وأخضع بهم قبائل صنهاجة كلها، ثم خرج من الصحراء سنة 445 هـ ودعاه فقهاء من سجلماسة وسوس، بينهم شيخه " وكاك " فافتتح بلاد درعة وسجلماسة، واستولى على " تارودانت " قاعدة سوس، وفتح بلاد المصامدة حربا، وامتد سلطانه من نواحي السنغال إلى سجلماسة، ومن درعة الى أغمات الى حاحة والشياظمة وتقدم الى قبائل " برغواطة " وكانت لها دولة على الشاطئ الأطلسي بين الدار البيضاء والسويرة، فاستولى على بلادها... بعد وقائع أصيب فيها بجراح كانت سبب وفاته، ودفن في موضع يسمى " كريفلة " في قبيلة " زعير " غير بعيدة عن الرباط، وأقيمت على قبره قبة معروفة الى اليوم . [8]

هكذا تنتهت قصة المؤسس الكبير والاسم الخالد الشيخ عبد الله بن ياسين باستشهاده في حرب برغواطة سنة451 هـ1059 = م، فكان – رحمه الله – من قادة الجهاد الذين خلدوا صفحات مشرفة في تاريخ الإسلام، وضعفت القيادة العليا للمرابطين منذ تولى على بن يوسف حكم البلاد، واستبد كثير من الأمراء بالأمر، ثم جاء الخلاف الخطير بين إبراهيم بن تاشفين وعمه إسحاق بن علي على السلطة، في الوقت الذى كان يزحف فيه الموحدون نحو العاصمة مراكش، يضاف إلى ذلك تخاذل الجند، فضلا عن الحروب المستمرة التي خاضوها بالأندلس، فاستنزفت قواهم واقتصاد بلادهم، وظهور شخصية ابن تومرت الذى نجح في جذب أعداد كبيرة إليه . فكان ذلك كله من أسباب سقوط دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين.[9]

لكنها تركت ورائها إرثًا تاريخيًا ملئًا بالتضحيات والبطولات الجهادية للقادة المرابطين في جها الكفرة والوثنين من قبائل غانا، وغيرها من قبائل غرب افريقيا، الامر الذي يستوجب علينا التعريف بمفهوم الجهاد عند المرابطين

ثانيًا- مفهوم الجهاد:

الجهاد أو الجهاد في سبيل الله هو مصطلح إسلامي يعني جميع الأفعال أو الأقوال التي تتم لنشر الإسلام أو لصدِّ عدوٍ يستهدف المسلمين أو لتحرير أرضٍ مسلمة أو لمساعدة مسلم ما والمسلمين عامة، وهو شرعًا بذل الجهد من المسلمين في قتال الكفار المعاندين المحاربين، والمرتدين، والبغاة ونحوهم؛ لإعلاء كلمة الله تعالى . ويطلق أيضا على مجاهدة النفس والشيطان والفساق.

الجهاد هو ذروة سنام الإسلام كما ورد في الأحاديث النبوية وهو أفضل الأعمال، وحث القرآن على الجهاد بالنفس والمال وأمر به في مواطن كثيرة، وللمجاهد فضل عظيم في الإسلام وكذلك المرابط والشهيد .ينقسم الجهاد بمعنى القتال من حيث السبب إلى :جهاد الطلب وهو طلب العدو في أماكنهم وابتداؤهم بالقتال

ولتكون كلمة الله هي العليا، وجهاد الدفع وهو دفع العدو عن بلاد المسلمين. [10] أما جهاد الطلب، فحكمه أنه فرض على الكفاية. [11] إن لم يكن النفير عامًا[12] .متى قام به بعضهم سقط عن الباقين.[13] أما جهاد الدفع إن كان النفير عامًا، كأن هجم العدو على أرض المسلمين، فيصبح الجهاد فرض عين على كل قادر من المسلمين .وكذلك إذا التقى الزحفان وتقابل الصفان، حرم على من حضر الانصراف.[14]

ويُقسَّم الجهاد بمفهومه العام من حيث العدو فيُقسمه العلماء إلى :مجاهدة العدو الظاهر وهم الكفار والمنافقين والمرتدين والبغاة ونحوهم؛ لإعلاء كلمة الله تعالى، ومجاهدة الشيطان، ومجاهدة النفس، ويُقسِّم العلماء الجهاد من حيث الآلة إلى ثلاثة أقسام :جهاد بالقلب، وجهاد باللسان، وجهاد باليد. [15]

والجهاد في اللغة :بذل الجهد والوسع والطاقة، من الجُهْد بمعنى الوُسع، أو من الجَهْد بمعنى المشقة وكلا المعنيين في الجهاد .يقال جهد الرجل في الشيء :أي جد فيه وبالغ، وجاهد في الحرب مجاهدة وجهادً فهي صيغة مشاركة من الجهد وهو الطاقة والمشقة، كما أن القتال مشاركة من القتل، قال الراغب الأصفهاني في مفردات القرآن :والجهاد والمجاهدة استفراغ الوسع في مدافعة العدو.[16]

والجهاد شرعا واصطلاحًا في الإسلام هو بذل الجهد من المسلمين في قتال الكفار المعاندين المحاربين، والمرتدين، والبغاة ونحوهم؛ لإعلاء كلمة الله تعالى . ويطلق أيضا على مجاهدة النفس والشيطان والفساق قال ابن حجر العسقلاني: فأما مجاهدة النفس فعلى تعلم أمور الدين ثم على العمل بها ثم على تعليمها، وأما مجاهدة الشيطان فعلى دفع ما يأتي به من الشبهات وما يزينه من الشهوات، وأما مجاهدة الكفار فتقع باليد والمال واللسان والقلب، وأما مجاهدة الفساق والمنافقين فباليد ثم اللسان ثم القلب.[17]

ومن الآيات التي وردت في الحث على الجهاد والقتال في سبيل الله: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ)** [التوبة الاية:20] وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : الآية 95] وقال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ [التوبة: الآية 111. [18] وفي هذه الآية ترغيب في الجهاد،

فجعل الله سبحانه وتعالى هنا الجنة ثمنًا لنفوس المؤمنين وأموالهم. إذا بذلوها فيه استحقوا الثمن، وعقد معهم هذا العقد. وقد جاءت العديد من الأحاديث النبوية في فضل الجهاد وأنه أفضل الأعمال بعد الإيمان بالله، فقد روى البخاري ومسلم عن أبو هريرة أنه قال: سئل رسول الله أي العمل أفضل؟ قال: إيمان بالله ورسوله. قيل: ثم ماذا؟ قال: الجهاد في سبيل الله. قيل: ثم ماذا؟ قال: حج مبرور، وعن ابن مسعود: قال: قلت يا رسول الله أي العمل أحب إلى الله؟ قال: الصلاة على وقتها، قلت: ثم أي؟ قال: بر الوالدين. قلت: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله، وعن أبي ذر الغفاري: قال: قلت: يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ قال: الإيمان بالله والجهاد في سبيله. [19] ، وقد ذكر النبي أن الجهاد لا يعادله أيًا من الأعمال الأخرى، فأخرج البخاري عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: دلني على عمل يعدل الجهاد، قال: «لا أجده» ، قال: «هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك، فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تفطر؟» ، قال: ومن يستطيع ذلك؟ قال أبو هريرة: إن فرس المجاهد ليستن في طوله، فتكتب له حسنات، وعن أبي سعيد الخدري قال: أتى رجل رسول الله فقال: أي الناس أفضل؟ قال: مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله، قال: ثم من؟ قال: مؤمن في شعب من الشعاب يعبد الله. ويدع الناس من شره. [20]

وأن الخروج في سبيل الله خيرٌ من الدنيا وما فيها، فعن سهل بن سعد قال: قال رسول الله: موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها. [21] ، وأن جهز غازيًا أو خلفه بخير فله أجره، فعن زيد بن خالد، أن رسول الله ﷺ قال: «من جهز غازيًا في سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازيًا في سبيل الله بخير فقد غزا». [22]

وفي هذا السياق المفاهيمي لوحظ جهاد المرابطين في غانا، الذين كانوا يَتَّخِذون خياماً كبيرة على الثغور يحمون فيها ثغور المسلمين، ويُجاهدون في سبيل الله؛ ويعلمون الناس القران والسنة فقد تَسَمَّى) الشيخ عبد الله ياسين ومَن ممن كانوا يُرابطون في خيام على نهر السنغال بجماعة) المرابطين، وعرفوا بهذا الاسم، كما ذكرنا سلفا.

والخيمة في اللغة تعني :الرباط، والرباط :مراقبة العدوا في الثغور، فَالرِّبَاطُ مُلازَمَةُ ثَغْرِ العَدُوّ، كالمُرَابَطَةِ، كما في الصّحاح، الخَيْلُ الخَمْسُ مِنْهَا فما فَوْقَهَا، نَقَلَه الجَوْهَرِيُّ، أَيْضاً: وَاحِدُ الرِّبَاطَاتِ المَبْنِيَّة. نَقَلَه الجَوْهَرِيُّ قلتُ: فيَكُون الرِّبَاطُ: مَصْدَرَ رَابَطْتُ: أَي لاَزَمْتُ، و قِيلَ: هو هاهُنَا اسمٌ لما يُرْبَطُ به الشَّيْءُ، أَي يُشَدُّ، يَعْنِي أَنَّ هذه الخِلالَ تَرْبِطُ صاحِبَهَا عن المَعَاصِي، و تَكُفُّه عن المَحارم.)[23] مَا يُرْبَطُ بِهِ الْقِرْبَةُ و

غَيْرَهَا و الْجَمْعُ رُبُطٌ مِثْلُ كِتَابٍ وَ كُتُبٍ اسْمٌ مِن رَابَطَ مُرَابَطةً مِنْ بَابِ قَاتَلَ إذَا لاَزَمَ ثَغْرَ الْعَدُو.[24]

وبالتالي إثبات أن الرباط الإسلامي لم تكن مهمته مقصورة على العبادة والنسك، بل كان له دور قيادي جهادي لحماية دولة الإسلام ورد عادية المعتدين، لذا نجد المرابطين دولة نشأت للقضاء على الفساد، دولة أسسها العلماء وبناها العلماء وقامت على يد العلماء ، دولة حكمت أكثر من مائة عام لم يتوقف فيها الجهاد أبدا ، دولة حكمت بالقران والسنة وأعادت أمجاد المسلمين.

وهنا ينقل لنا محمد عبدالله عنان، قول الأمام محي الدين ابن عربي: المرابطين:قاموا بدعوة الحق ونصرة الدين وهم حماة المسلمين المجاهدون دونهم، وكذللك قول ابن الخطيب كانت دولتهم دولة خير وجهاد وعافية وأكثر الدول حفاظا على السنة، والمرابطين دولة دعوة على القران والسنة ، ودولة مصبوغة بالجهاد في سبيل الله ، دولة أنتشر فيها العلم والعلماء وانتشرت الدراسات العلمية المتنوعة ، كانت أيام المرابطين أيام عدل ورخاء وأنقطع في زمانهم قطاع الطرق والمتسولين.، [25]

بدؤوا يتوسعون حتى وصلت حدودهم من شمال السنغال إلى جنوب موريتانيا، وأدخلوا معهم جُدَالة ، فأصبحت جُدَالة ولَمْتُونة، وهما القبيلتان الموجودتان في شمال السنغال وجنوب موريتانيا - جماعة واحدةً تمثِّل جماعة المرابطين - ثم في حرب برغواطة سنة451هـ 1059م.[26] ليسقط الشيخ المجاهد عبد الله بن ياسين شهيداً، بعد أن أمضى أحد عشر عامًا من تربية الرجال على الجهاد.

ثالثًا- عبدالله بن ياسين ودوره في الجهاد:

يعتبر ابن ياسين هو المؤسس الحقيقي لدولة المرابطين حيث أقام ر بطه في موقع مهم، فهو قريب من مملكة غانة الوثنية، لذلك فهو مهدد بالأعداء ولابد للجماعة المقيمة فيه من الجهاد ، وهو في نفس الوقت قريبا من ديار الملثمين فيستند اليهم في حالات الخطر ، وتشكل تلك الديار موردا بشريا لا ينضب لمن يريد الانضمام اليها , أقام ابن ياسين مع تباعه السبعة مدة تقرب ثلاثة اشهر دون ان ينضم اليه احد، وبعد ذلك بدأ توافد الاتباع وتكاثر العدد حتي بلغ الألف ، ولكثرة المريدين وضع ابن ياسين شروطا لكي لا يتأثر تنظيم رباطه الجديد بالمخربين ، وعمل على تحكيم شرع الله ، ورفع العلماء مراتب عالية إلى وجمع الزكاة والعشــور والحقوق وخمس الغنائم ، وكان يتول أي تثقيف اصحابه ويعلمهم قراءة القران والتفسير والحديث واحكام الدين الاسلامي، فكان رباط ابن ياسين منارة يشع نورها في ظلمة الصحراء ، وهذا شجع أبناء القبائل ، على الانضمام اليه، كما وفـر الأمن والاستقرار في الديار النائية الصحراوية ، فاصبح

بإمكان القوافل عبــور الطريق بأمن وسـلام دون ن تتعرض لسوء ، فأدى ذللك الى ازدهار التجارة , وكان الإمام ابن ياسين هو الموجه في الرباط والمرشد ؛ ولكنه كان يختار لإدارته احد الامراء، ووفي الأمور المهمة كان الأمر شورى بين الجماعة فشكل مجلسا للشورى وجماعة للحل والعقد، حيث تطورت ، وأصبحت مرجعية عليا للملثمين، كان مذهب ابن ياسين يستند في احكامه الى الشريعة الإسلامية مروية عن مذهب الإمام مالك ابن انس، واهم اسسه الجهاد في سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتزام أحكام الدين في جميع الامور واقامة الحدود وجباية الأموال , وقد احتل الجهاد مكانة رفيعة لدى المرابطين وفرض ابن ياسين الجهاد علي أنصاره وحضهم على الالتزام به. (26)

يروي ابن أبي زرع فيصف هذه المرحلة من حياة المرابطين بقوله : (فدخلاها الجزيرة ودخل معهما سبعة نفر من كدالة، فابتنيا بها رابطة، وأقام بها مع أصحابه يعبدون الله تعالى مدة من ثلاثة أشهر، فتسامع الناس بأخبارهم، وأنهم يطلبون الجنة والنجاة من النار، فكثر الوارد عليهم والتوابون، فأخذ عبد الله بن ياسين يُقرئهم القرآن ويستميلهم إلى الآخرة، ويُرَغِّبهم في ثواب الله تعالى، ويُحَذِّرهم أليم عذابه، حتى تمكَّن حُبُّه منهم في قلوبهم، فلم تمر عليهم أيام حتى اجتمع له من تلاميذه نحو ألف رجل من أشراف صنهاجة، فسماهم المرابطين للزومهم رابطته، وأخذ هو يُعَلِّمهم الكتاب والسنة والوضوء والصلاة والزكاة، وما فرض الله عليهم من ذلك، فلما تفقهوا في ذلك وكثروا قام فيهم خطيبًا، فوعظهم وشَوَّقهم إلى الجنة، وخَوَّفهم من النار، وأمرهم بتقوى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأخبرهم بما في ذلك من ثواب الله تعالى وعظيم الأجر، ثم دعاهم إلى جهاد مَنْ خالفهم من قبائل صنهاجة، وقال لهم :يا معشر المرابطين؛ إنكم جمع كثير، وأنتم وجوه قبائلكم ورؤساء عشائركم، وقد أصلحكم الله تعالى وهداكم إلى صراطه المستقيم، فوجب عليكم أن تشكروا نعمته عليكم، وتأمروا بالمعروف، وتنهوا عن المنكر، وتجاهدوا في سبيل الله حقَّ جهاده . فقالوا :أيها الشيخ المبارك؛ مُرْنَا بما شئت تجدنا سامعين مطيعين، ولو أمرتنا بقتل آبائنا لفعلنا .فقال لهم :اخرجوا على بركة الله، وأنذروا قومكم، وخَوِّفُوهم عقاب الله، وأبلغوهم حجته، فإن تابوا ورجعوا إلى الحقّ وأقلعوا عمَّا هم عليه فخلوا سبيلهم، وإن أَبَوْا من ذلك وتمادوا في غيهم ولجُّوا في طغيانهم، استعنَّا بالله تعالى عليهم، وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا، وهو خير الحاكمين .فسار كل رجل منهم إلى قومه وعشيرته، فوعظهم وأنذرهم ودعاهم إلى الإقلاع عمَّا هم بسبيله، فلم يكن منهم من يقبل ولا يرجع، فخرج إليهم عبد الله بن ياسين، فجمع أشياخ القبائل ورؤساءهم وقرأ

عليهم حجة الله، ودعاهم إلى التوبة، وخَوَّفهم عقاب الله، فأقام يُحَذِّرهم سبعة أيام وهم في كل ذلك لا يلتفتون إلى قوله، ولا يزدادون إلا فسادًا، فلمَّا يئس منهم قال لأصحابه : قد أبلغنا الحجة وأنذرنا، وقد وجب علينا الآن جهادهم، فاغزوهم على بركة الله تعالى). [27]

اجتهد ابن ياسين في ظل هذا الواقع المرير في طلب العلم من فقهاء الأندلس، وابتعد عن المشاركة في الحياة السياسية، ثم عاد إلى المغرب ليصبح مِن خيرة طلاب الفقيه وجاج بن زلو، فعندما طلب أبو عمران الفاسي مِن تلميذه وجاج بن زلو أن يرسل مع يحيى بن إبراهيم فقيهًا عالما ديّنا تقيًّا مربّيا فاضلًا وقع الاختيار على عبد الله بن ياسين الصنهاجي الذي قدم نفسه لهذه المهمة، وكان عالما بتقاليد قَومه وأعرافهم وبيئتهم وأحوالهم، ولما دخل عبدُ الله بن ياسين مع يحيى بن إبراهيم في مضارب ومساكن الْمُلَثَّمين من قبيلة جدالة عام 430هـ-1038م. [28] استقبله أهلُها، واستمعوا له فأخذ يعلمهم، فكان تعليمُه باللغة العربية لطلبة العلم، أما الإرشاد الديني للعامة فكان بلهجة أهل الصحراء البربرية. [29] يقول القاضي عياض: (وجَّهَ الشيخ أكاد عبد الله بن ياسين مع جوهر بن سكن، وكان موصوفًا بعلم وخير، فسار معه وفهم له سيْرَه ولقومه، وأَخذ من الشدةِ في ذات الله تعالى وتغييرِ المناكير وانعزامِ صاحبِه مَنْ لم يقبل الهدى، ولم يزل يَستَقْرِ تلك القبائل حتى علا عليهم وأظهروا الإيمان هنالك.[30]

يصفه ابن أبي زرع بأنه من الأذكياء النبهاء النبلاء، ومن أهل الدين والفضل والتقى والورع والفقه والأدب والسياسة، مشاركٌ في العلوم.[31] فابن ياسين لم يكن فقيهًا فقط بل كان عالما محدثًا مفسرًا.[32] كما أجمع الرواة على أنه (كان من الفقهاء النابهين الحذاق، شهمًا قويَّ النفس ذا رأي وخير وتدبير. [33] وقد بدأ دعوته في شرح الإسلام للناس وشرح عقائده وبيان فضل الإسلام، واستجاب الناس لدعوة عبد الله بن ياسين إلا أنهم سرعان ما أجهضوها، قالوا: أما الصلاة والزكاة فقريب، وأما قولك "من قتَل يقتل، ومن سرق يقطع، ومن زنا يجلد" فلا نلتزمه، فاذهب إلى غيرنا؛ فعمَّهُم الجهل، وانحرفوا عن معالم العقيدة الصحيحة، وتلوثت أخلاقُهم، هذا فضلًا عن اصطدام توجيهِهِ بمصالح أمراء القوم وكبرائهم؛ فثاروا عليه وكادوا يقتلونه إلا أنه ترك قبيلة جدالة، وانتقل إلى قبيلة لمتونة يدعو فيها ويؤسس له فيها أنصارًا لدعوته.[34]

أقام ابن ياسين رباطَه في الحوض الأدنى لنهر السنغال، وموقعه يدلُّ على أهداف ابن ياسين التي أعد لها، فهو يقع قريبًا من مملكة غانة الوثنية؛ لذلك هو مُهدَّد دائمًا بالأعداء، ولا بُدَّ للجماعة المقيمة فيه من الجهاد، وهو غير بعيد عن ديار الْمُلَثَّمين، ومن ثم يمكن الاستناد إليهم في حالات الخطر. [35] كما أنَّ تلك الديارَ تشكِّل موردًا بشريًّا لا

ينضب لمن يريد الانضمام إليه، وهذا يفسر كثرة عدد رجاله، وقد عمل جاهدًا على تحكيم شرع الله على الأفراد وفي مُجْتَمَعه الجديد، ولم تكن إقامة الشرع في أبناء تلك القبائل بالأمر السهل، فكانوا مرات عدة يخرجون عن حدود الشرع وابن ياسين يقوّمهم ما استطاع، لقد عاشوا حياة أشبه ما تكون بالجاهلية قبل أن يقدم إليهم ابن ياسين ويعمل على دعوتهم وإصلاح شؤونهم، وقد حدث أن وجاج عاتب ابن ياسين لما بلغه أن جماعة المرابطين قد أكثروا القتل والنهب في بعض المواضع، فأجاب يعتذر بأن هؤلاء كانوا في جاهليَّةٍ، يَزنُون ويُغِير بعضهم على بعض، وَمَا تجَاوزتُ الشَّرعَ فِيهِم.[36]

كان ابن ياسين يهتمُّ اهتمامًا بالغًا بأهل العلم والمعرفة، ويرفعهم إلى مراتب عالية؛ فالتف حوله مجموعة من الفقهاء والعلماء ليساعدوه على تربية النَّاس وتعليمهم وتأهيلهم للمرحلة القادمة، ولم يكن الحياءُ يمنعه من طرْد مَن لا يراه مناسبًا لهدفه المنشود، وكان شيخه وجاج على اتصال دائم معه للتشاور والتباحث فيما يستجد، فينصحه ويوجهه ويمده بالعلم اللازم، وقد أسَّس الداعية الرباني ابن ياسين رباط السنغال، فكانَ منارة يشعُّ نورُها في تلك الصحاري القاحلة، فأصبح مركزًا علميًّا مهمًّا، جذَبَ أبناء قبائل صنهاجة إليه، ووفَّر الأمن والاستقرار في تلك الديار الصحراوية البعيدة، فأصبحت القوافل تمرُّ بأمن وسلام دون أن يعرِضَ لها أحد بسوء، وقد أدَّى ذلك إلى ازدهار التجارة، وتميَّزَ ذلك الرّبَاط بحسن إدارته وتنظيمه وتشكيله؛ فساعد على قُوَّة النواة الأولى لدولة المرابطين، وتشكل مجلس الشورى، وجماعةٌ للحلِّ والعقد تطورت بمرور الأيام وأصبحت مرجعية عليا لِلْمُلَثَّمِين.[37]

رابعًا- أصول المنهج الجهادي عند ابن ياسين:

يُعد الفقيه ابن ياسين من علماء أهل السنة والجماعة، مالكي المذهب استمدَّ أصوله من أصول المالكية التي كانت ولا زالت ضاربة بجذورها في قلوب أهالي الشَّمَال الإفريقي، إلا أن لابن ياسين اجتهاداته الحركية والتنظيمية التي أملتها عليه طبيعة دعوته التي عاشها، ويمكن القول بأنه فقيه مجدد صاحب حركة دعوية، وبأنّ الأصول التي أسس عليها حركة المرابطين هي ذاتها الأصول التي أقام عليها الإمام مالك مذهبه الفقهي: القرآن والسنة وعمل أهل المدينة وأقوال الصحابة والمصالح المرسلة والقياس وسد الذرائع.[38]

ولَمَّا رسَّخ ابن ياسين مبادئ الدعوة الإسلامية وقيمها السامية في نفوس أتباعه التفت إلى الجانب الاقتصادي، فأمرهم بإيتاء الزكاة وأداء العشر، واتخذ لذلك بيت مال يجمع فيه ما يُرفع إليه من ذلك، ومن أموال الزكاة والأعشار والخمس كان ابن ياسين ينفق على طلبة العلم في بلاد المصامدة خاصة مدرسته أكلو التي نشأ فيها، وحيثما وُجد مركز

علمي أرسل له ابن ياسين الدعم المالي، ثم انتقل ابن ياسين إلى المرحلةِ الثالثة مرحلةِ الجهاد، فبدأ يركز على الجانب العسكري، وأخذ يشتري السلاحَ والخيول المعدة لخوض المعارك والجمالَ المجهزة لحمل الجيوش الْمُلقى على عاتقها حماية الدعوة وتطبيق الشريعة الإسلامية في البلاد التي تحت يدِهَا.[39]

استطاع ابن ياسين أن يقيم مدرسته المرابطية على هذه الأصول والمعاني الدينية التي تسمو بالفكر والنفس معًا، وقد أمَّ هذه المدرسةَ أعداد كبيرة من الطلبة ليتتلمذوا على يد علمائها، ثم انطلقوا بعد انتهاء دراستهم إلى المدن والأرياف وأعماق الصحراء مجاهدين في نشر علوم الشريعة التي تلقوها في هذه المدرسة، وأمضى ابن ياسين في هذه المدرسة عِقدين من عمره، يُعِدّ جيل القادة المجاهدين الذين لعبوا دورًا كبيرًا في جملة المتغيرات السياسية والفكرية والاجتماعية التي عمَّت أرجاء الغرب الإسلامي، ومن أبرز هؤلاء القادة أبو بكر بن عمر اللمتوني وابن عمه يوسف بن تاشفين ، وأصبح معه رجال كثر يعتمد عليهم في تبليغ دعوة الله على الفهم الصحيح لكتاب الله وسنة نبيه -صلى الله عليه وسلم -،وعلى فقه الإمام مالك أمر أتباعه وتلاميذه أن يذهب كل منهم إلى قبيلته أو عشيرته ليجتهد في دعوتهم إلى العمل بأحكام الله وسنة رسوله-صلى لله عليه وسلم- فلما لم يجدوا استجابة من أقوامهم خرج ابن ياسين إلى القبائل بنفسه فجمع أشياخهم ووعظهم وحذرهم عقاب الله ، واستمر في ذلك سبعة أيام فلم يزدادوا إلا فسقا فلما يئس منهم أعلن الجهاد عليهم.[40]

خاض هؤلاء المرابطون عدة معارك ضد القبائل الصنهاجية التي ثارت ضد دعوتهم، كجدالة ولمتونة ومسوفة، واستمروا في محاربة الخارجين عليهم إلى أن سيطروا على بلاد الصحراء. وجمعوا مالًا كثيرًا من الزكاة والأعشار والأخماس وكانوا يصرفون به على طلبة بلاد المصامدة وقضاتها، ولما توفي يحيى بن إبراهيم الجدالي جمع عبد الله بن ياسين، رؤساء القبائل من صنهاجة، فقدم عليهم يحيى بن عمر المثوني، وأمره عليهم، لكن عبد الله بن ياسين، حسب قول ابن أبي زرع بقي الأمير على الحقيقة؛ حيث بقيت السلطة الدينية لعبد الله بن ياسين، والسلطة السياسية لأمراء صنهاجة كما يفسر بعض المؤرخين، ويذهب آخرون إلى وجود حركة مرابطية منظمة على أكثر من صعيد لعل أولها لجوء عبد الله بن ياسين، وقاعدته البشرية الصنهاجية إلى محاربة الجيوب المذهبية المضادة للمذهب المالكي.[41]

خامسًا- جهاد المرابطين في المغرب الأقصى :

بسبب قوة مملكة غانة في بداية القرن الخامس الهجري، لم يستطع الصنهاجيون مواجهتها. مما جعل المرابطين يتراجعون إلى الشمال واستغلوا اضطراب الأحوال السياسية ودخلوا إلى سجلماسة باعتبارها قاعدة أساسية في المسلك التجاري الذي يربطها بأودغشت في الجنوب.

وكان قد سبق أن كتب إلى ابن ياسين فقهاء من سجلماسة، يرغبونه في الوصول إليهم لمساعدتهم على القضاء على البدع وإقامة العدل وإظهار السنة وتخليصهم من زناتة المغراويين وزعيمهم مسعود بن وانودين.(42)

فزحف جيش المرابطين ونزلوا بوادي درعة ، وكانت أخبارهم قد وصلت إلى مسعود، فأعد جيشا قوامه أكثر من عشرة آلاف للقاء المرابطين، لكن لم يصمدوا وقتل أميرهم مسعود، وعاد من تبقى منهم إلى سجلماسة ليحصنوا أنفسهم بالمدينة، لكن المرابطين لم يتركوهم بل انقضوا عليهم بالسيوف حتى هزموهم. وترك عبد الله حامية في سجلماسة واتجه إلى الصحراء للقضاء على ثورة الزنوج. واستغل المغراويون الفرصة وانقضوا على حامية سجلماسة وقتلوها عن آخرها، الأمر الذي أغضب عبد الله ورجع وقضى عليها جميعا، وثبَت أقدام جيشه.(43)

أمر الشيخ عبد الله بن ياسين بإزالة ما يخالف الشريعة، والضرائب الجائرة، وحرق الديار التي تبيع الخمور وأمر بتوزيع الأخماس على المرابطين وفقهاء البلاد وتطبيق أحكام الدين، واختار عاملا من قبيلة لمتونة لحكم سجلماسة. وفي سنة 448هـ أخذ عبد الله يستعد لغزو بلاد السوس، فغزى بلاد جزولة وماسة وضمها للمرابطين، ثم قصد عاصمة السوس مدينة تارودانت التي كانت بها طائفة من الشيعة يقال لها البجلية نسبة إلى مؤسسها عبد الله البجلي، الذين قدموا إلى بلاد السوس زمن حكم الفاطميين بالمغرب.(44)

اتجه إلى أغمات وتتبع من تبقى من فلول البرغواطيين، لكن حاصره البرغواطيون بالمدينة، إلا أنه استطاع أن يخرج من هذا الحصار واتجه صوب تادلا وتابع المرابطون الزحف حتى تمكنوا من القضاء على الإمارات الزناتية في إقليم الجنوب في أوائل سنة 450هـ واتخذوا من مدينة أغمات معسكرا لجيوشهم. وسيطروا على فازار، ولوانة، ومكناسة. فقررت قبائل المصامدة الانضمام إلى المرابطين وأعلنوا الاتحاد معهم، فقوى ذلك شوكة المرابطين، وبذلك استطاع عبد الله الاستيلاء على إقليم سوس الأقصى وشفشاوة حتى وادي تانسيفت، وبسطوا الدعوة في أقاليم مراكش. (45)

بعد العمل الفكري والسياسي والاستراتيجي الذي قام به عبد الله بن ياسين لإعادة ربط الصلة بين شمال المغرب الأقصى والعمق الصحراوي، ثقافيا واقتصاديا وسياسيا، تفرغ لشن حملات جهادية شرسة بين تادلة وتامسنا لمحاربة التجمع القبلي للبرغواطيين الذين كانوا يشكلون لدعوته خصوما سياسيين أشداء إيديولوجيا، واقتصاديا، وكان يشاع أنهم يبيحون التزوج بأكثر من أربع نسوة، ويتعاملون بالسحر، ويحرمون أكل رأس البهائم، وأكل الدجاج، وكان مجالهم الحيوي يمتد من مصب نهر أبي رقراق شمالا إلى مصب نهر أم الربيع جنوبا، وكانت لهم قاعدة بشالة، وامتدت في منطقة تادلة ومنطقة دكالة.[46] وكان هذا الصراع مصيريا لعبد الله بن ياسين، حيث لقى استشهاده فيه سنة 451هـ ودفن بكريفلة، بين الرباط والرماني، ولا زال إلى اليوم يعرف مزاره باسم سيدي عبد الله تخليدا لرسالته.

كان لطبيعة فَهْم هذه القبائل للإسلام في تلك الفترات أثرٌ في ضَعْفِ تحالُفِها، فلم يكن أفراد تلك القبائل يفهمون الإسلام الفَهْم الكافيَ حتَّى إنَّ بَعْضَ الكُتَّاب وصفهم بأنَّهم قبل قيام حركة المرابطين لم يكونوا يفهمون من الإسلام إلا الشهادتين.[47] ومما يؤيد ذلك أنَّ الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي أثناء حضوره بعض مجالس العلم في بلاد المغرب أدرك ما كان عليه قومه من جهل لتعاليم الإسلام، ولمَّا سأله الفقيه أبو عمران الفاسي عن حالة قومه وما ينتحلونه من مذهب في الإسلام كانت إجابته صريحة؛ حيث وصف قومه بأنهم أناسٌ غَلَبَ عليهم الجهل وليس عندهم من العلم عن الإسلام شيءٌ، وليس فيهم مَن يقرأ القرآن.[48] فكان لذلك بلا شك آثاره السلبية على تحالفاتهم وبالتالي على جهادهم في الصحراء.

سادسًا- جهاد المرابطين في الصحراء وفتح غانا:

بعد وفاة عبد الله بن ياسين إمام المرابطين سنة (451 هـ 1059م) ، تولَّى الأمير أبي بكر بن عمر جميع المهام في قيادة المرابطين جامِعًا بذلك بين الإمامة والإمارة . ومع مرور الوقت أصبح ابن عمه يوسف بن تاشفين ساعِدَهُ الأيمن.

وحينما وصلت إلى مسامع الأمير أبي بكر بن عمر أخبارُ الصراع بين قبائل البربر في الصحراء سار مِن تَوّه بجُزْءٍ مِنَ الجَيْشِ إلى الصحراء، وهناك استطاع أن يحسم الخلاف وأن يقطع دابر الفتنة، وقد أخذ منه إنجازُ هَذِهِ المهمة بعضَ الوقت، وعندما عاد إلى المغرب وجد يوسف بن تاشفين قد رتَّب شؤون الدولة واستقرت له الأوضاع، فتنازل الأميرُ أبو بكر بن عمر لابن عمه عن السلطة في المغرب في أول لقاء بينهما، وقرر أن يعود مع قوة من المرابطين في الصحراء وحَمَلَ لواء الجهاد في بلاد السودان.

غير أن المصادر التي بين أيدينا لم تعط اهتمامًا يُذْكر لجهاد المرابطين في السودان.[49] لذلك لا أتوقع ان اجد رؤايات مفصلة عنه لكي نتلمس ونحدد الجهود من جهاد هذا القوة من المرابطين في غانا، فقد جاء ضمن هذه الإشارات التاريخية من الدَّلالات ما يكفي للقول بأن كان لإزاحة السلطة الوثنية وإبدال سلطة إسلامية بها [50] .تدعًيما وتعميقًا لوجود الإسلام الذي وصل إلى المنطقة عن طريق التجار المسلمين وصار له أتباعٌ في غانا منذ القرن الثالث الهجري يحتاج لجهود كبيرة.[51]

تفيدنا هذه الدَّلالات بالإشارةَ إلى ما كان للظروف الدينية والاجتماعية التي كانت سائدة في بلاد المغرب والصحراء مِن أثر في جهاد المرابطين، فالبكري أورد تفصيلات عن موجة التنبؤ والشعوذة التي عمَّت جزءًا كبيرًا من بلاد المغرب الأقصى في الفترة التي قامت فيها حركة المرابطين [52] وقد عبَّر ابن أبي دينار عن هذه الحالة السيئة بقوله" :وقام بالمغرب عدة أقوام مِن المفسدين وقليل من المصلحين، فقيَّض الله سبحانه وتعالى دولة الملثَّمين البربر ويقال لهم المرابطين. [53]

كذلك نجد فيما أورده ابن أبي زرع عن" درعة وسجلماسة "مثالاً للحالة التي وصلت إليها بعضُ المناطق في المغرب، فقد أشار إلى اتصال أهالي هاتين المدينتين بالمرابطين؛ طلبًا للخلاص مما تعانيه بلادهم من المنكرات وشدة العَسْف والجَوْر. [54] وشبَّه ابن عذارى حالة الفوضى التي كانت تعيشها بلاد المغرب في تلك الفترة بالحالة التي كان عليها ملوك الطوائف بالأندلس. [55] أمَّا القبائل في الصحراء فإنها لم تكن تعرف من الإسلام في تلك الفترة إلا الشهادتين.

بالإضافة الى ذلك أيضًا ما حظيت به دولة المرابطين وقادتها من ثناء بالغ في المصادر، وربط ذلك بما قدمه أولئك القادةُ من مجهود لردِّ الناس إلى السُّنَّة، وقمْع الفِرَق والفئات المنحرفة في المغرب، وحمل لواء الجهاد في الصحراء والسودان، فعبد الله بن ياسين، قائد الدولة والمؤسس الأول لها، أصيب على أرض المعركة وتُوفي أثناء الجهاد في بلاد المغرب. [56] ويحيى بن عمر، الذي كان رجل المرابطين الثاني في حياة عبدالله بن ياسين، استُشهد أثناء الجهاد ضد الوثنيين على تخوم السودان .وأبو بكر بن عمر، الذي أصبح الرجل الأول في الدولة بعد استشهاد ابن ياسين، تُوفي هو الآخر على أرض المعركة في الجهاد ضد الوثنيين في بلاد غانا.[57]

وفي هذا السياق يقول البكري عن قبائل صنهاجة" :وهذه القبائل هي التي قامت بعد الأربعين والأربعمائة بدعوة الحق، وردِّ المظالم، وقطْع جميع المغارم.[58] وقريب من هذا يشير ابن أبي زرع إلى أنه بالرَّغم من غلبة البداوة على المرابطين إلا أنهم كانوا أهل دِين مَتِين عدَلوا في أحكامهم وواظبوا على الجهاد. [59] ويُعدِّد ابن أبي

زرع أيضًا منجزاتِ عبدالله بن ياسين في" سجلماسة "بعد فتحها، فيقول .." :وأصلح أحوالها وغيَّر ما وجد بها من المنكرات، وقَطَع المزامير وأحرق الديار. [60] التي كانت تباع بها الخمر، وأزال المكوس وأسقط المغارم المخزنية. [61] ويقول متحدثًا عن الأمير أبي بكر بن عمر" :وسار إلى الصحراء فهدنها وسكَّن أحوالها. [62]

وبهذه المواصفات جاهدوا كل قبائل البربر في الصحراء التي وقفت ضد دعوة الإصلاح والعودة إلى الإسلام الصحيح. [63] ولما كان ذلك الجيش الذي جاهد في غانا كان جزءًا من تلك الدولة فليس من المستغرب أن يُنظر إلى زحفه على غانا على أنه كان مجهود كبير يشار اليه في المقام الأول على انه رغبةً في الجهاد في سبيل الله، خاصة إذا علِمنا أن أبا بكر بن عمر، قائد هذا الجيش، لم يأتِ من فراغ ولم يكن رجلاً مغمورًا، بل كان أحد قادة الجهاد في المغرب والصحراء، فهو الذي قدَّمه عبدالله بن ياسين، مؤسس الحركة للإمارة على المرابطين، وأثنى عليه في إحدى المناسبات، فذكر زهده وورعه وما أصلح الله على يديه من البلاد. [64]

ولعل ما يدل على قولنا بأهمية الجهاد في هجوم أبي بكر بن عمر وجيشه على غانا، وفتحه لمدينة كومبي صالح سنة 469هـ، ما ورد في المصادر من إشارات صريحة إلى عملية الجهاد، حيث قال ابن أبي زرع عن الأمير أبي بكر بن عمر : "وجمَع جيوشًا كثيرة، وخرج إلى غزو بلاد السودان، فجاهدهم . [65] وفي موضع آخر يشير ابن أبي زرع إلى جهاد هذا الأمير لكفار السودان واستشهاده هناك، قائلًا : "وانصرف إلى الصحراء، فأقام بها مدة يجاهد الكفرة من السودان إلى أن استُشهد - رحمه الله - في بعض غزواته. [66]

وأشار ابن عذارى أيضًا إلى وفاة أبي بكر بن عمر وهو يحارب السودان المجاورين" للمتونة "في الصحراء .[67] وذكر الزهري في حديثه عن غانا أن أهلها تحولوا إلى الإسلام، وحَسُن إسلامهم عندما خرج إليهم أبو بكر بن عمر اللمتوني .[68] وتحدث ابن خلدون عن مآثر أبي بكر بن عمر فذكر ضمن ذلك أنه فتح بابًا من جهاد السودان، واستولى على نحو تسعين مرحلة من بلادهم.[69]

يبدو لي ان هذا النجاح في إسقاط السلطة الوثنية في إمبراطورية غانا لم يكن مجرد إنجاز محدود، أو حَدثٍ عابر، نتج عنه من نجاحات مهمة، إلا أنه بالإمكان القولُ إن المرابطين بإنجازهم هذا أعطوا الإسلام في المنطقة دَفعةً قوية تركت فيها أثارًا عميقة، الأمر الذي ترتب عليه احداث هامة في تاريخ المنطقة:

الأول :ازدياد انتشار الإسلام في هذه المنطقة على أيدي السودانيين أنفسهم من السوننك والتكرور وغيرهم،

والثاني :ظهور عدد من الممالك الإسلامية التي كان لبعضها أثرٌ واضح في تاريخ إفريقيا الغربية .ولم يكن ذلك ليتحقق من مجرد أهداف عابرة ونيات غير جادة.
الثالث :السرعة في السيطرة على الطرق والمراكز التجارية المهمة في شمال الصحراء وعلى تخوم السودان، وهذا ما فعله المرابطون، فقد اتجهوا للسيطرة على مدينتي" سجلماسة وأودغست "في السنوات الأولى من قيام الدولة حيث استولوا على "أودغست "في نفس السنة التي أخضعوا فيها مدينة" سجلماسة "وهي سنة446 هـ 1054)وكان ذلك كله على يد عبدالله بن ياسين الزعيم الأول للدولة، كما اسلفنا ذلك.

هكذا هيَّأ المرابطون لأنفسهم التحكمَ في أهم طريق تجاري ربط بلاد المغرب بالسودان الغربي في ذلك الوقت، فمدينة" أودغست "كانت تمثل النهاية الجنوبية لهذا الطريق، وبوابة" الذهب "حيث يخرج منها في طريقه إلى الشمال،" وسجلماسة " كانت تمثل نهايته الشمالية والبوابة المستقبلة للذهب، وتجارات بلاد السودان الأخرى [70].

وبالتالي اعتقد أن ما قام به المرابطون من أعمال فيما يخص الناحية الاقتصادية لم يرتبط بمكاسب إقليمية أو قَبَلِيَّة بحتة، ولا أدل على ذلك من تلك الخدمات الجليلة التي قدمها المرابطون لتجارة المنطقة بأسرها) .[71] حيث قاموا بخطوات عملية مهمة في السودان الغربي .تتمثل في: إسقاطُ كل ما يخالف السُّنَّة من مكوس وضرائبَ مالية، فقد ذكر ابن أبي زرع في حديث عن سيرة المرابطين في حُكْمهم من سنة(462 - 540هـ 1145 – 1069 م)، في المناطق التي امتد سلطانهم إليها، بما فيها بلاد غانا، أنه لم يكن فيها رسم مكس ولا وظيفة من الوظائف المخزنية ما عدا الزكاةَ والعشر حسب ما أقره الشرع ، اضف الى ذلك أيضًا اهتمامهمُ بأمن الطرق وسلامة القوافل وذلك بالأخذ على أيدي قطاع الطرق واللصوص، حيث قال ابن أبي زرع" :ولم يكن في أيامهم نفاق.[72] ولا قطاع ولا مَن يقوم عليهم .[73] وقد أشار ابن خلدون إلى ناحية من ذلك عندما أثنى على يوسف بن تاشفين لمَا قام به من أعمال عظيمة، وخص بالذكر اهتمامَه بأمن الرعايا من جور واستبداد بعض الفئات والقبائل.[74]

اجتهد المرابطين في تحسين عَلاقات القبائل بعضها مع بعض وذلك بحَلِّ ما بينها من خلافات ونزاعات ، حيث أشار ابن عذارى، على سبيل المثال، إلى جهود عبدالله بن ياسين في ذلك فيذكر أن ابن ياسين عَمِل كل ما في وسعه لإخماد الفتن التي ثارت بين قبائل" المصامدة "وقبائل بلاد" تامسنا " سنة (450 هـ 1085م) ، حيث سار من "سجلماسة "وطاف بمواطن هذه القبائل واجتمع برجالاتها ووعظهم، ولم يغادر حتى أخذ عليهم العهودَ والمواثيق بالسمع والطاعة للأمير أبي بكر بن عمر، وكان مما قاله

لهم في إحدى خطبه: (ألا تعرفون أنه مَن مات منكم في هذه الحروب الجاهلية، فإنه مِن أهل النار).[75] ولا ننسى أيضًا عودة أبي بكر بن عمر إلى الصحراء على عَجَلٍ عندما جاءه الخبر بأن" جدالة "أغارت على فئات مِن" لمتونة "هناك.[76]

ومن الطبيعي ان يكون لهذه الخطوات الأثرُ الكبير في تشجيع الناس على الإقبال على التجارة، والتوسع فيها الأمر الذي ساعد في تنشيط الحركة التجارية، وانخفاض الأسعار وظهور فترة من الأمن الاقتصادي، والرخاء في المراكز التجارية التي كانت تُشرف على التجارة عبْر الصحراء .[77] وإن مما يؤكد ذلك ازديادَ رواج التبادل التجاري بين بلاد المغرب والسودان الغربي في مختلف أنواع السلع، فالإدريسي(ت 560هـ 1165م) ،على سبيل المثال، وصف أهل مدينة" أغمات "فقال" :(وهم أملياء)هكذا في النص .[78] (تجار مياسير يدخلون إلى بلاد السودان بأعداد الجمال الحاملة لقناطير الأموال من النُّحاس الأحمر الملون، والأكسية وثياب الصوف والعمائم والمآزر، وصنوف النظم من الزجاج والأصداف والأحجار، وضروب من الأفاويه والعطر وآلات الحديد المصنوع .وما منهم مِن رجل يسفر عبيده ورجاله إلا وله في قوافلهم المائةُ جمل والسبعون والثمانون جملاً، كلها مُوقَرَةٌ، ولم يكن في دولة الملثَّمِينَ أَحَدٌ أكثر منهم أموالاً .[79] "... وإن مما يؤكده أيضًا ما صار يتدفق على مراكز المغرب التجارية مِن ذهبِ السودان، ومن هذه المراكز المهمة مدينةُ" سجلماسة "التي أصبحت مقر سكِّ العملة المرابطية.[80]

وفي حديث أبو عبيد البكري عن "مملكة غانه في الجنوب الغربي سنة (460 هـ 1067م) ، أشار الى وجود مسلمين بأعداد كبيرة في هذه المملكة، وأن ملك غانا واسمه" تنكامين "آنذاك" كان محمود السيرة محبا للعدل "كما يصفه، وأن مملكته تكوَّنت من حاضرتين أو مدينتين كبيرتين، ثم أردف البكري قائلا" :إحداهما المدينة التي يسكنها المسلمون، وهي مدينة كبيرة فيها اثنا عشر مسجدا أحدهما يجمعون فيه، ولها الأئمة والمؤذِّنون والراتبون، وفيها فقهاء وحمَلة علم.[81] الامر الذي يُظهر بشكل واضح ما كان للمرابطين من مآثرَ وإيجابيات على الناحية الاقتصادية في المنطقة.

سابعًا- رؤية ابن خلدون للفتح المرابطي لغانه:

لم يفت ابن خلدون مثل هذا الحدث التاريخي الجلل لدولة المرابطين في الصحراء ، حيث كان ضمن الكُتَّاب المسلمين الذين كتبوا عن المرابطين وعن الممالك الإسلامية في السودان بما فيها مملكة غانا، وهو يَنقُل عن مصادرَ مثل الإدريسي وابن سعيد بن أبي زرع، كما هو واضح من إشاراته لمصادره، وهذه المصادر وإن

سبقت ابن خلدون في الترتيب الزمني إلا أنها جميعها ليست بالطبع مصادرَ معاصرةً لأحداث الفتح، حيث انفرد ابن خلدون مِن بَيْن هذه المصادرِ وغيرها بإيراد نص قصير يصف فيه بعض أحداث جهاد المرابطين في غانا، فقال ابن خلدون في ذلك: (ثم إن أهل غانية ضَعُف مُلكهم، وتلاشى أمرُهم واستفحل أمْر الملثَّمين المجاورين لهم من جانب الشمال مما يلي البربر ، سنة 469هـ، كما ذكرناه وعبَروا على السودان، واستباحوا حِماهم وبلادهم، واقتَضَوْا منهم الإتاوات والجِزَى، وحَمَلُوا كثيرًا منهم على الإسلام فدانوا به.[82]

وبالرغم من البعد الزماني والجغرافي لابن خلدون عن هذا الحدث الجلل كما ذكرنا سلفًا، وكذا قصر رؤيتها التاريخية هنا، ارتيت اهمية التوقف عند هذا النص التاريخي بالتقصي والتحليل العلمي الرصين، لسببين:

الأول :عَلاقة النص المباشرة بجهاد المرابطين في غانا، وبالتالي هدفهم من الهجوم عليها، وهو موضوع البحث الذي بين أيدينا.

الثاني :كون عبارات النص تُدِين في ظاهرها المرابطين؛ حيث تُظهِر الهجوم وكأنه مجرد عدوان على غانا، وطمع مادي فيها.

كل هذا يدفعني كباحث الى عدد من التساؤلات منها: هل قصد ابن خلدون هذا المعنى؟ وهل تحدث ابن خلدون عن المرابطين في مواضع أخرى بما يؤيد ذلك؟ وهل ما ذكره في هذه المواضع ينسجم مع ما ورد من إشارات عن المرابطين في المصادر الأخرى؟ وإن مناقشة النص السابق من خلال محاولة الإجابة على هذه التساؤلات ستُعِين في استجلاء المعنى المراد من عباراته، وتدعم في نفس الوقت ما سبق وقيل عن الهدف الرئيس من جهاد المرابطين في غانا.

فحينا يقول ابن خلدون" :واستباحوا حماهم وبلادهم "يجب أن يُفهَم ضمن إطار ما كان المسلمون يتخذونه من خطوات قبل القيام بعملية الجهاد، والتفصيل في هذه الناحية يَخرُج بالطبع عن نطاق هذا البحث، إلا أننا نرى أنه من المفيد أن نشير هنا إلى الأمور الثلاثة التي كان يَعرِضها المسلمون على الجانب الأخر قبل الشروع في الحرب حيث كان ذلك سُنَّةً في الإسلام، ففي الحديث الذي رواه" مسلم "في صحيحه ذُكرت الوصايا التي كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يُوصِي بها مَن كان يؤمِّرهم على الجيوش، ومِن ذلك قوله - عليه الصلاة والسلام)) :-وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلاَثِ خِصَالٍ - أَوْ خِلاَلٍ - فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ((.. وذَكَر النبي - عليه الصلاة والسلام - الإسلامَ ثم الجزية ثم الحرب .[83]ولما كان هدفُ المرابطين الأساسُ مِن دولتهم كان ردَّ الناس إلى الإسلام

الصحيح، والعمل على نشر الإسلام، كما تبيَّن سابقًا؛ لذا فقد حَرَصوا على تطبيق السُّنَّة في عملية الجهاد، وقد ساروا في ذلك على مذهب الإمام مالك، فالبكري، وهو ممن عاصر قيام الدولة، يقول عن المرابطين" :وهم على السُّنَّة متمسكون بمذهب الإمام مالك بن أنس - رضي الله عنه - وكان الذي نهج ذلك فيهم ودعا الناس إلى الرباط ودعوة الحق عبدُالله بن ياسين. [84] ويذكر ابن عذارى، في حديثه عن جهاد المرابطين في السنوات الأولى من قيام الدولة، أنه رأى كتابًا قديمًا كان قد بعث به الفقيه عبدالله بن ياسين إلى أهل الجبل الموالي لبلاد" لمتونة "يدعوهم للدخول في الإسلام وشريعة محمد - صلى الله عليه وسلم - وقد كان أولئك القوم مشركين حسب ما ذكره ابن عذاري. [85] ويؤيد ذلك ما ذكره ابن أبي زرع في" الأنيس المطرب"، وهو أحد المصادر التي اعتمد عليها ابن خلدون، من أن ابن ياسين خطب في أتْباعه عند أول خروج لهم وبَيَّن أن عليهم أن يبدؤوا بالإنذار والدعوة وإبلاغ الحُجَّة قبل الشروع في الجهاد والدخول في الحرب.[86]

وبالتالي نادى المرابطون بمبدأ التبليغ قبل الحرب مع البرغواطيين الذين عُدُّوا أهل كفر وضلال حسب ما أشارت إليه المصادر[87] ولم يكتفِ المرابطون بتطبيق مبدأ الدعوة قبل الحرب في بلاد المغرب فقط، بل أخذوا به في الأندلس، فمِن ذلك أن يوسف بن تاشفين أرسل إلى" ألفونسو "يدعوه للدخول في الإسلام أو دفع الجزية أو الحرب وذلك قبل معركة الزلاقة، التي حدثت سنة479 هـ1086 / م.[88]

وبناءًا على هذا الأساس فإن المرابطين لابد أن يكونوا قد ساروا في جهادهم ضد إمبراطورية غانا الوثنية حسَب السُّنَّة؛ إذ لا يوجد في المصادر ما يشير إلى أن المرابطين طبَّقوا أُسلوبًا آخرَ في جهادهم لهذه الإمبراطورية، فهُمْ يعلمون أنها تُمثِّل أمة كافرة، وإذا كان أسلافهم قد حملوا لواء الجهاد في السودان من قبلُ، فمِن البديهي أن يسير فيه المرابطون على الوجه المطلوب، وهم الذين نادوا بحركة التصحيح بعد أن ابتعدت قبائلهم عن الإسلام وتفرقت كلمتهم، وإذا كان الأمر كذلك فأبو بكر بن عمر إذًا لم يدخل بجيشه بلاد غانا وحِماها إلا بعد أن وجبت الحرب؛ فاستحل السيطرة عليها للقضاء على السلطة الوثنية، وإخضاع البلاد لحُكْم المسلمين، كما سبقت الإشارة إليه.

يذكر ابن خلدون في إشارته إلى الناحية المالية بعد فتح المرابطين لغانا، الإتاوات والجزية وذلك في قوله" :واقتضوا منهم الإتاوات والجزى ."وقد يعود تفسير ذلك إلى احتمالين :الأول :أنه أورد إتاوات) جمع إتاوة [89] (كمرادف لكلمة جزى) جمع جزية. [90] الثاني :أنه أراد التفصيل فقصد بالإتاوة ضريبة الأرض كالخراج، وبالجزية

ضريبة الرأس كما ورد في كُتُب الأحكام[91] . وأن لا يتوافق قصده مِن هذه المفردات مع ما ورد في كتب الفقه.

ومما يقوي وجهة النظر هذه أننا لو نظرنا إلى تاريخ دولة المرابطين من بدايتها؛ لوجدنا أن مِن أبرز الأمور التي أجمع عليها المؤرخون الذين اهتموا بالكتابة عن دولة المرابطين - ومِن بينهم ابن خلدون نفسُه - رَفْضَ المرابطين أيَّ تدابير مالية لا تتوافق مع السُّنَّة من مكوسٍ وضرائبَ إضافيَّةٍ وما إلى ذلك، بل وتشدُّدَهم في هذا الأمر.

وقد رأينا البكري في نص سابق يثني على المرابطين؛ لقطْعِهم جميع المغارم [92] .وكذلك ابن عذارى لم يُغفِل هذه الناحية في إشارته إلى ما عُرِف به المرابطون مِن حرص على تطبيق السُّنَّة .[93] ويشير ابن أبي زرع إلى اهتمام عبدالله بن ياسين بمسألة الأموال، فيذْكُر أنه بعد الانتصارات التي حققها المرابطون في بلاد السوس أخرج ابن ياسين عمَّاله على نواحيها، وكان من ضمن ما ألزمهم به وشدَّد عليهم فيه أخذُ الزكاة والعشر، وإسقاطُ ما سوى ذلك من المغارم المُحدَثة .[94] والتزم المرابطون بهذه السياسة الجبائية في عهد يوسف بن تاشفين، فيذكر ابن أبي زرع أنه لم يكن في عهده طوال أيامه رسمُ مكس ولا مغارم، ولم يكن يجبي سوى ما أوجبه حُكْم الكتاب والسنة من الزكاة والأعشار وجزية أهل الذمة وأخماس غنائم المشركين .[95]ويؤكد ابن خلدون ذلك بإشارته إلى أن ابن تاشفين أنكر على أمراء الطوائف بالأندلس وجودَ المكوس والمغارم، وأنه تعهد برفع هذه المظالم، وتحرى العدل.[96]

لذلك لابد لنا في تفسير العبارة السابقة لابن خلدون مِن أن ننظر إليها ضمن موقف المرابطين تُجاه الناحية المالية بوجه عام، إذ ليس من المتوقع أن يشذ المرابطون عن السُّنَّة في هذا المجال لمجرد تغيُّر المكان وقد ساروا عليها في كل جهادهم، خاصة وأن أبا بكر بن عمر، وهو الذي قاد الزحف على غانا، قد عُرِف بالتقوى والورع، كما سبقت الإشارة إليه، ولم يكن في ذلك بأقل من عبدالله بن ياسين.

أما العبارة الأخيرة في النص والتي يقول فيها ابن خلدون" :وحَمَلوا كثيرًا منهم على الإسلام فدانوا به "فمن الواضح أنه لا يقصد أن المرابطين كانوا يُكرِهون الناس بالقوة على اعتناق الإسلام إذ لو أمعنا النظر في عبارات أخرى لابن خلدون شبيهةٍ بهذه العبارة؛ لتأكد لنا ذلك، فهو عندما تحدث عن تاريخ الملثمين قبل حركة المرابطين أشار إلى جهادهم ضد أمم السودان الوثنية وقال ما نصه" :وجاهدوا مَن بها مِن أمم السودان وحملوهم على الإسلام فدان به كثيرهم) هكذا في النص (واتقاهم آخرون بالجزية فقبلوها منهم. [97] وفي عبارة أخرى يستخدم ابنُ خلدون نفس المعنى أيِ الدخول في الجهاد ضد الفئة المخالفة، حيث يقول عن ابتداء خروج المرابطين

للجهاد" :ولما كَمُل معهم ألفٌ من الرجالات قال لهم شيخهم عبدالله بن ياسين :إن ألفًا لن تُغْلَبَ من قِلَّةٍ، وقد تعيَّن علينا القيامُ بالحق، والدعاء إليه، وحَمْلُ الكافَّة عليه فاخرجوا بنا لذلك فخرجوا .[98] فكلمة" حمل "في هذه الاستخدامات لا تعني إجبار الناس بالقوة، أو إكراههم فرادى على الدخول في الإسلام، بل تفيد مواجهة مَن يعترض طريق الإسلام، أو بمعنى آخر جهاده ومناجزته؛ حتى لا يكون سدًّا يحول دون انتشار الإسلام بَيْن مَن وراءه مِن الناس.

وأما بالنسبة لما كتبه ابن خلدون عن المرابطين في مواضع أخرى من تاريخه؛ فإنه يوجد فيه ما يبرهن بلا شك على أن ابن خلدون لا يقف موقفًا سلبيًّا منهم، فقد تحدث عن فتح المرابطين لمدينة" سجلماسة "وأشار إلى الإصلاحات التي قاموا بها في هذه المدينة بعد إخضاعها فقال" :وأصلحوا مِن أحوالها، وغيَّروا المنكرات، وأسقطوا المغارم والمكوس، واقتضوا الصدقات .[99] وفي موضع آخر ذكر ابن خلدون أعمالَ الأمير أبي بكر بن عمر وأشار إلى جهوده في سبيل إخماد نار الفتنة التي تأجج أوارها بين قبيلتي" لمتونة "و"مسوفة"، وهما من أكبر قبائل البربر .كما أشار ابن خلدون إلى فتح هذا الأمير بابًا للجهاد في السودان لنشر الإسلام بين الوثنيين [100]وذكر أيضًا مزية أخرى للمرابطين على جانب من الأهمية وهي اهتمامهم بأمن الرعايا وسلامتهم من ظلم واستبداد بعض الجماعات والقبائل حيث قال" :ثم صرف عَزْمَهُ أي (يوسف بن تاشفين)، إلى مطالبة" مغراوة "وبني" يفرن "وقبائل" زناتة " بالمغرب، وجذب الخيل مِن أيديهم وكشف ما نزل بالرعايا مِن جورهم وعَسْفهم فقد كانوا مِن ذلك على ألم.[101]

الخاتمة:

لقد اتضح مِن البحث أن الشيخ عبدالله بن ياسين، وهو ممن قادوا دولة المرابطين في جهادها في المغرب وفي الصحراء حيث زحفت جيوش مِن المرابطين على بلاد المغرب الأقصى، ثم غانا لتزيح السلطة الوثنية مِن الحُكْم وذلك بدافع الجهاد في سبيل الله وليس بدافع مادِّيّ.

انطلقت دعوة الجهاد المرابطي من صحاري غرب أفريقيا لأن الدعاة أدركوا أنه لابد من البداية من هناك بسبب تخلف القبائل الموجودة هناك وفقرها وابتعادها عن تعاليم الدين الإسلامي وانتشار البدع والخرافات عند المسلمين لأنه لم يكن هناك يعلمونهم أصول الدين الإسلامي.

لم يكن هم الدعاة في دولة المرابطين تأسيس دولة ذات كيان سياسي ليكون لهم نفوذ وسلطة وليقوموا باستبعاد القبائل الموجودة هناك ويسرقوا ثروات البلاد كما كان هو دارجًا في ذلك الوقت، بل كان همهم وهدفهم الأساسي هو حمل لواء الدعوة الإسلامية وإيصالها إلى أقصى النقاط في بلاد أفريقيا.

رفع راية الجهاد في دولة المرابطين بين المدن والدول في غياهب الصحاري وبين القبائل الفقيرة كان بهدف إعادة الإسلام أو نشره ومن أجل رفع الظلم عن الشعوب التي لم يكن لديها القوة للدفاع عن نفسها.

أما رؤية ابن خلدون لهذا الجهاد فقد تبيَّن أنه لم يقصد توجيه أيّ اتهام للمرابطين لا بالعدوان ولا بالطمع المادي، وابن خلدون على العموم لا يقف موقفًا سلبيًّا تُجاه المرابطين ولا تُجاه جهادهم سواء في غانا أو في غيرها.

بيان تضارب المصالـــح:

يُقر المؤلف بعدم وجود أي تضارب مالي أو علاقات شخصية معروفة قد تؤثر على العمل المذكور في هذه الورقة.

الهوامش:

1 المرابطون :هـــو الاسم المأخوذ من الرباط أي الخلوة التي اتخذها عبد الله بن ياسين ومعه سبعة نفر من كدالة، فابتنا بها رابطة.... فتسامع الناس بأخبارهم.... فلم تمر عليهم أيام حتى اجتمع لها من تلاميذه نحو ألف رجل من أشرف صنهاجة سماهم بالمرابطين للزومهم رابطتة، ابن أبي زرع الفاسي، روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، صور للطباعة والوراق، الرباط ،1972م، ص.125.

2 عبد الله ياسين :هو أحد الفقهاء النابهين المتأثرين بمبادئ المالكية وقد وصفه ابن أبي زرع بأنه من أهل الفطنة و الدين و التقي و الورع و الزهد و قد اختلفوا في سنة و فاته فهناك من يقول بأنه توفي سنة451 هـــ ، ومنهم من يقول أن وفاته هي450 هـــ، حمدي عبد المنعم، التاريخ السياسي و الحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين ،دار المعرفة الجامعة ،1997 ،ص 44.

3 نجيب زبيب، الموسوعة العامة التاريخ المغرب و الأندلس ط،1 دار الأمير للثقافة و العلوم ،1415هـ1995 ، ص232.

4عصمت عبد اللطيف ديندش ، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا ،دار الغرب الإسلامي ، بيروت لبنان، 1988م ، ص52 .

5حمدي عبد المنعم ، المرجع السابق، ص.39

6 المرجع نفسه ، ص.41

7 القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، مطبعة فضالة المحمدية، المغرب، د ت، ج8،..81

8 حمدي عبد المنعم، المرجع السابق، ص.44

9 خير الدين الزركلي، كتاب الاعلام، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة عشر، ج4، ص.143

10 مرعي الشهري ، أحكام المجاهد بالنفس في سبيل الله عز وجل في الفقه الإسلامي، المدينة المنورة :مكتبة العلوم والحكم، 2003 ص68 .،

11 أبو بكر الجصاص ، أحكام القرآن، تحقيق :محمد الصادق قمحاوي، بيروت :دار إحياء التراث العربي، ج4 .، 1985، ص311 .

12 وهبة الزحيلي ، الفقه الإسلامي وأدلته) ط2 ، دمشق :دار الفكر، ج8 .، 1995ص5848 .، 5849،

13 مرعي الشهري ، أحكام المجاهد بالنفس في سبيل الله عز وجل في الفقه الإسلامي، المدينة المنورة :مكتبة العلوم والحكم، 2003،ص70.

14 محمد رشيد رضا ، تفسير القرآن الحكيم المسمى تفسير المنار، القاهرة :الهيئة المصرية العامة للكتاب ،1990 ، ج10، ص269.

15 ابن المناصف ، الإنجاد في أبواب الجهاد، تحقيق :مشهور بن حسن آل سلمان، دار الإمام مالك، بيروت، 2005، ص.12

16ابن الأثير أبو السعادات ، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق :محمود محمد الطناحي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1979، ج1، ص319.

17ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق :محب الدين الخطيب، دار المعرفة للطباعة والنشر، 1959 بيروت، ج6 ، ص3.

18 ابن المناصف، الإنجاد في أبواب الجهاد، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، دار الإمام مالك، بيروت، 2005، ص79،

19 محمد بن إسماعيل البخاري، "كتاب الجهاد والسير، حديث رقم 2630"، صحيح البخاري، تحقيق: مصطفى ديب البغا (ط. 5)، دار ابن كثير، دمشق، ج. 3، 1933م، ص1025.

20 محمد بن إسماعيل البخاري، "كتاب الجهاد والسير، حديث رقم 2633"، صحيح البخاري، تحقيق: مصطفى ديب البغا (ط. 5، دار ابن كثير، دمشق، ج. 3، 1993، ص1026.

21 محمد بن إسماعيل البخاري، "كتاب الرقائق، باب مثل الدنيا في الآخرة، حديث رقم 6052"، صحيح البخاري، تحقيق: مصطفى ديب البغا (ط. 5)، دار ابن كثير، دمشق، ج. 5، 1993، ص. 2358،

22 محمد بن إسماعيل البخاري، "كتاب الجهاد والسير، حديث رقم 2688"، صحيح البخاري، تحقيق: مصطفى ديب البغا (ط. 5)، دار ابن كثير، دمشق، ج. 3، 1993، ص. 1045،

23 الزبيدي، تاج العروس، مطبعة الكويت، 2006، ج10 , ص260.

24 المقري، المصباح المنير، مكتبة لبنان، بيروت، 2009، ص215.

24 محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس العصر الثالث القسم الأول عصر المرابطين وبداية الدولة الموحدية، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2008، ج4، ص321.

25 ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الفكر العربي، بيروت 1956، ج6، ص190.

26 علي الصلابي، فقه التمكين عند دولة المرابطين, مؤسسة اقرا للنشر والتوزيع والترجمة, 2116 القاهرة. ص153.

27 ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص15.

28 أبو الثناء الصفاقسي: نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، ت: علي الزواري ومحمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1998م، ج1، ص432.

29 علي الصلابي: فقه التمكين عند دولة المرابطين، مؤسسة اقرأ، القاهرة، ط1، 1427هـ، ص21.

30 القاضـــي عياض: ترتيب المدارك وتقريب المســـالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ت: عبد القادر الصحراوي وآخرين، دار الفضائل المحمدية، الرباط، 1970م، ج8، ص81.
31 ابن أبي زرع، روض القرطاس، دار المنصورة للطباعة والوراقة، الرباط، ص16.
32 يقول إبراهيم الجمل: (برع في الفقه والحديث والتفسـير وفي السـياسـة والجهاد وقيادة الشـعوب وقيادة الجيوش). الإمام عبد الله بن ياسين، دار الإصلاح، ط1، 1981م، ص (139.
33 حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1957م، ص (116.
34 ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1417هـ، ج1، ص345.
35 محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، دار الخانجي، القاهرة، 1997م، ج2، ص302.
36 الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج18، ص427.
37 علي الصلابي، المرجع السابق، ص43.
38 سعدون عباس نصرالله : دولة المرابطين في المغرب والأندلس , عهد يوسف بن تاشفين –دار الـــــنـــــهضـــــــة , بـــــيـــــروت، 1985، ص 27-24
39 حســـن احمد محمود، قيام دولة المرابطين.، دار الفكر العربي، بيروت، 1985، ص131.
40 علي الصلابي، المرجع السابق، ص50.
41 ابن أبي زرع، المرجع السابق، ص20.
42 ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص242.
43. عصمت عبداللطيف دندش، المرجع السابق، ص 44
44 حسن احمد محمود، المرجع السابق، ص151.
45 سعدون عباس نصرالله، المرجع السابق، ص44.
46 ابن ابي زرع، المصدر السابق، ص43.
47 ابن أبي زرع، ج2، ص21.
48 ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب"، تحقيق: إحسان عباس، الطبعة الثانية، بيروت، دار الثقافة، 1400هـ 1980م ج4، ص7.
49 عصمت عبداللطيف دندش، ص112، حيث أشار إلى هذه الناحية واقترح تعليلات لذلك في قوله: "ويبدو أن أحداث المغرب ومن بعدها جهاد المرابطين في الأندلس قد طغت على أحداث الجنوب".
50 يشـير أحد المسـتشـرقين إلى نفس المعنى بقوله: "إن الأجواء في غانا كانت قد تهيأت للتحول إلى الإسـلام وذلك من خلال التأثير السـلمي على مدى فترة طويلة للمسـلمين المقيمين في غانا ومع ذلك مازالت الحاجة قائمة لتدمير تلك القوة العسكرية والسياسية الوثنية في غانا والتي ظلت تقف بصلابة رافضة الإسلام. وهذا ما فعله المرابطون انظر.
Levtzion, N. Ancient Ghana and Mali, (London, Methuen and Co. Ltd., 1973) P. 28.
51 إبراهيم على طرخان، "إمبراطورية غانا الإســلامية"، القاهرة، الهيئة المصــرية العامة للتأليف والنشر، 1970، ص41-44.
52 البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب"، باريس، المكتبة الشــرقية الأمريكية، 1965، ص 134-141.
53 ابن أبي دينار، محمد بن أبي القاسـم الرعيني، "المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس"، تحقيق محمد شمام، تونس، المكتبة العتيقة، 1387هـ. ص98-99.
54 ابن أبي زرع، ج2، ص17-19.
55 ابن عذارى ج4، ص10.
56 ابن أبي زرع، ج2، ص29.

57 ابن أبي زرع، ج2، ص20-35.
58 البكري، المصدر السابق، ص164،
59 ابن أبي زرع، المصدر السابق، ج2، ص92.
60 هكذا في النص، والمعنى دور، جمع دار. انظر ابن منظور، محمد بن مكرم، "لسان العرب"، بيروت، دار صادر، د. ت، ج4، ص298.
61 ابن أبي زرع، المصدر السابق، ج2، ص20.
62 ابن أبي زرع، المصدر السابق، ج2، ص33.
63 ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص106-107.
64 ابن عذارى، المصدر السابق، ج4، 14-15.
65 ابن عذارى، ج4، ص24-25؛ ابن أبي زرع، ج2، ص32-35؛ ابن خلدون، ج6، ص184. يعترف أحد الكتاب الغربيين بأثر شخصية أبي بكر بن عمر في وجود روح الجهاد الحقيقي لدى المرابطين في هجومهم على غانا، وما قاموا به بعد ذلك من أعمال في السودان إلا أن الكاتب يرى أن هذه الروح فقدت بعد وفاة أبي بكر بن عمر. انظر: **Moraes Farias, p. 800**
66 عصمت عبداللطيف دندش، المرجع السابق، ص26.
67 ابن عذارى، المصدر السابق، ج4، ص26.
68 الزهري، محمد بن أبي بكر، كتاب الجغرافية، عن:
Corpus of Early Arabic Sources for west Afreican History, Edited by j. Hopkins and N. Levtzion, Cambridge, Cambridge University Press, 1981, p. 98.
69 ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص184.
70 الحبيب الجنحاني، المغرب الإسلامي: الحياة الاقتصادية والاجتماعية 3-4هـ/ 9-10م، تونس، الدار التونسية للنشر، 1978، ص178، ص193-194.
71 محمد الغربي بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، الكويت، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر، 1982، ص43، والذي يشير على شيء من ذلك في قوله عن حكم المرابطين: "أنه قدم للمنطقة أعمالاً جليلة ومنجزات في الميدان الاقتصادي لا سبيل إلى نكرانها".
72 لقد تمت مراجعة عدد من معاجم اللغة: المخصص لابن سيده، والصحاح للجوهري، ولسان العرب لابن منظور وتاج العروس للزبيدي، والقاموس المحيط للفيروز أبادى، وذلك لضبط وتحديد معنى كلمة نفاق، إلا أن الكلمة لم توجد في هذه المعاجم بما يناسب السياق الوارد في النص. والذي يبدو لي أن ابن أبي زرع يعني بالكلمة النهابين أو السراق أو المحتالين.
73 ابن أبي زرع، المصدر السابق، ج2، ص94.
74 ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص184.
75 ابن عذارى، المصدر السابق، ج4، ص15.
76 ابن عذارى، المصدر السابق، ج4، ص20، وقد جعل ذلك من أحداث سنة 463هـ (1070م)، أما ابن أبي زرع، المصدر السابق، ج2، ص32، وابن خلدون المصدر السابق، ج6، ص184، فقد جعلا ذلك في سنة 452هـ (1060م).
77 الحبيب الجنحاني، "السياسة المالية للدولة المرابطية"، المؤرخ العربي، العدد 13، 1980، ص16.
78 لم أعثر في معاجم اللغة على كلمة بهذا اللفظ، ويحتمل أن تكون مشتقة من الامتلاء، وأوردها الإدريسي، على ما يبدو، كمرادف لكلمة مياسير.

79 محمد بن محمد الشريف الإدريسي، "المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس"، مأخوذ من كتاب "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، ليدن، مطبعة بريل، 1968م ص66.
80 الجنحاني، "السياسة المالية للدولة المرابطية"، ص19.
81 البكري، المصدر السابق، ص164.
82 ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص200.
83 القشيري، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، بيروت، دار إحياء التراث العرب، 1375هـ، ص1357، حديث رقم 1731.
84 البكري، المصدر السابق، ص164.
85 ابن عذارى، المصدر السابق، ج4، ص12.
86 ابن أبي زرع، المصدر السابق، ج2، ص14.
87 ابن أبي زرع، المصدر السابق، ج2، ص 24؛ ابن أبي دينار المصدر السابق، ص 106.
88 ابن عذارى، المصدر السابق، ج4، ص115.
89 لم يرد في كل من اللسان والقاموس المحيط إتاوات كجمع لكلمة إتاوة، وإنما ورد أتاوى وأتى، انظر ابن منظور، ج14، ص 18؛ الفيروز أبادي مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، القاهرة، المطبعة المصرية، 353هـ / 1935م، ج4، ص 297.
90 ابن منظور، المصدر السابق، ج14، ص 147.
91 ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، أحكام أهل الذمة، تحقيق صبحي الصالح، بيروت، دار العلم للملايين، 1983م، ج1، ص100.
92 البكري، المصدر السابق، ص 164.
93 ابن عذارى، المصدر السابق، ج4، ص11.
94 ابن أبي زرع، المصدر السابق، ج2، ص22.
95 الجنحاني، "السياسة المالية للدولة المرابطية"، ص15.
96 ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 187، وانظر أيضا ص 183من الجزء نفسه.
97 ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص181.
98 ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 183. ويلاحظ أن إيرادنا لهذين الاستشهادين عن ابن خلدون هو لتأكيد مقصوده من كلمة حمل في النص، وإلا فهذا الاستخدام ليس غريبًا فالبكري (ص172)، على سبيل المثال، وصف جهود ملك التكرور وحرصه على تطبيق شرائع الإسلام على شعبه، فقال: "وأقام شرائع الإسلام، وحملهم عليها، وحقق بصائرهم فيها" وكل ذلك يتفق مع المعنى اللغوي لكلمة حمل فقد ورد في معاجم اللغة قولهم: وحمله على الأمر يحمله فانحمل أي أغراه به، وحمل على نفسه في السير أي جهدها فيه. انظر الفيروز أبادي، ج3، ص 361، ابن منظور، ج11، ص181.
99 ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص183.
100 ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص184.
101 ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص184.